من تراب الطريق (٥٦١)

مدارج الآدمي بين النضج والعاطفة والعقل والخيال (*)

(١)

نعرف من دراسة أحوال القدماء ، أن الآدمى كان يتجاوز القصر ويصبح راشداً ابتداء من قدرته على الإنجاب .. وتلك نظرة أو قراءة بدائية للغة الطبيعة التى احتاطت بإعداده للتوالد لبقاء النوع .. ومثل هذا التعجيل فى افتراض الرشد حدث أيضاً فيما يتعلق بالذكاء .. فقد قالوا إن ذكاء الآدمى يكون فى أعلى قوته وهو بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة .. وهى سن قريبة من سن بداية القدرة على الإنجاب .. وهذا وذاك ملحوظ فيهما كما يبدو إعداد الإنسان قبيل الدخول فى مرحلة الشباب لمواجهة أخطار تلك المرحلة وما يتلوها من مراحل حياته . وليس ملحوظا فيها محض إعلان كمال نموه وتمام نضجه ، لأن قدرة الإنجاب وقدرة الذكاء بدايتان فقط لظهور هذين الاستعدادين المهمين فى الأغلب الأعم من البشر .. وقد يظهر أولهما مبكراً أو لا يظهر بتاتا ، كما قد يلمع الذكاء فى طفولة بعض الموهوبين على نحو خارق للعادة أو على نحو ما قد يحدث فى الملكات الأخرى .

هذا وتستعمل كلمة نضج ابتداء فى معنى استواء الطعام والفاكهة والنباتات للأكل ، أى تمام صلاحيتها لهذا الغرض الذى تتغياه غالبية الناس . ونضج الآدمى مجاز تشبيه يعنى فى الاستعمال اكتمال مدركات وقدرات الإنسان العقلية والعاطفية على حسن التصرف والتعامل فى بيئته

(*) المال ١٣/ ٢/ ٢٠١٢

طبقا للمعتاد فيها . وهذا النضج وصف كلى عام تحته عناصر متعددة تتآلف فيها الخبرات والاستعدادات والمعارف فى عادات وأخلاق مطّردة يتميز بها سلوك الناضج عن سلوك غير الناضجين .

وعدم اكتمال النضج يوجد برغم بلوغ السن المقررة اصطلاحاً للرشد فى التعلق الشديد خلقةً أو تكلفاً بالعموميات والميل إلى رد الواقع والمواقف والمشاكل المتعلقة بهما إلى فكرة أو أفكار ذات بريق منطقى أو عينة لفظية جذابة تخدع صاحبها كما تخدع سامعيه وقارئيه ، فيعيش ويعيشون فى عالم خيالى بعيداً عن العالم الفعلى الذى لا مهرب منه لأى حىّ .

وهذا العالم الخيالى حين يخالط عقل الآدمى وعواطفه قد يستحكم ويتحكّم فيهما خفة الاندفاع فى القرارات والاتجاهات والصداقات والعداوات غير المجدية أو الزائفة أو المؤذية عسيرة العلاج أو غير القابلة للإصلاح .. وطبيعى أن يصاحب ذلك الاندفاع ، العناد والمغالاة والتطرف وعدم القدرة على ضبط النفس وعواطفها فى الخطير من المواقف ، والمجازفة غير المعتادة لدى الإنسان المحتاط ، التى لا تبالى بالمخاطر أيا كانت وتتجاهل الماضى قريبه وبعيده كأنما صاحبها يولد صبيحة يومه فقط !

وليس غريبًا فى تاريخ الآدميين ، أن يكون قادتهم مدنيين أو عسكريين فى أوقات الفتن والانفلاتات والثورات ، من غير الناضجين عقلياً أو عاطفيا ، وإن كان حظهم من الذكاء والحيلة والمهارة غير عادى .. لأن عامة الناس فى تلك الظروف والأوقات تكون قد فارقت ثباتها واستقرارها النفسى وفارقت تمسكها بهما ، وصارت سفينة بلا سُكان .. ثم قد يتتابع على قيادتها أشخاص من نوع أولئك ولعشرات السنين دون أن يتحقق للجماعة

ثبات واستقرارٌ جديدان، وتبقى النظم والضوابط والمؤسسات التى فرضها أولئك الأشخاص خلال سنى تسلطهم، تبقى معالم هشة، برغم ضخامتها وجسامة ما ضاع فى سبيلها من أرواح وأموال .. فهى لا تنجح فى بلوغ أعماق الشعب والامتزاج بمصدقاته، لأن القائمين عليها حرصوا على توارث ذلك السلطان أحياءً أو بعد الموت بنفس النظم والضوابط والمؤشرات، ولم يعطوا للناس فرصة للشعور بحريتهم وحقهم فى قبول أو رفض ما حصل أو ما كان من ذلك . ويبدو نضجنا ناقصا أو غامضا دون أن نشعر بعملية حصوله، وقد يشعر بها من حولنا ممن سبق لهم التعرض لها، وبوادره زيادة فى هدوء الحركة مع ميل إلى بعض التردد والشك فيما كنا من قبل نأخذه تسليماً باعتباره من المسلّمات التى لا تحتاج بحثًا ولا نقاشًا .. ومع زيادة غير قليلة من الشعور بقيمة ذاتنا وتميزها برغم إحساسنا بمقاومة المحيط، ومع بعض الترفع عن الصغائر فى أعيننا والاجتهاد فى الاندماج مع الشباب ومحاكاتهم فى الملبس والمظهر والحديث .. أما عناصر النضج فى التفكير والعمل والسلوك فى الحياة الخاصة والعامة، فتأتى متلاحقةً يصحح بعضها بعضاً ويكمله ويوسعه ويوقفه ويرقيه تبعاً لاستعدادات وظروف كل منا ومحيطه الذى يعيش فيه خلال اكتساب أو تطور أو تدهور تلك العناصر .. وذلك ما لم يكن أيُّنا ممتازاً غير عادى البنيان العقلى والنفسى يستطيع أن يقاوم تأثيرات المحيط غير السليم وينتصر عليها .. فدرجة نضج كل منا حصيلة تاريخه وتاريخ محيطه فى الأغلب الأعم . فيما عدا أصحاب الآفات والعاهات العقلية والنفسية الذين تحكمهم آفاتهم وعاهاتهم .

ولم توجد حتى الآن اختبارات معتبرة معترف بها لقياس درجة النضج لاختيار الحكام وممثلى الشعب والقادة مدنيين وعسكريين والمديرين والخبراء

وأرباب المهن الحرة ورؤساء العمال ، بينما توجد أنواع من تلك الاختبارات لقياس الذكاء لاختيار طوائف المذكورين فى البلاد المتقدمة .. وربما كان وراء ذلك تصور أن تلك الأعمال والمرافق أحوج إلى الذكاء ، وهو تصور مبالغ فيه .. وليس فى وجود الذكاء ما فى وجود النضج (مع قدر من الذكاء) من الفطانة والاعتدال والأمان .. وهذه صفات تسبق فى الأهمية أهمية التركيز على الذكاء فى غير قليل من واقع الحياة العامة والخاصة ، فالذكاء اللامع الذى كان ينقصه النضج الكافى والذى لم يتفاد أو يتحاش الاندفاعات والمجازفات والثقة فيما سبق من حُسْن الحظ وما تواتر من يُمْن الطالع يمكن أن يتردى فى المآزق أو المهالك فضلاً عن الفشل والخيبة . ومع تكرار ذلك وفداحة نتائجه مع الناس عامة فإنهم لا يلتفتون إلى الاحتياط لأنفسهم منه لقلة عدد الناضجين وقلة فرص النضج بينهم وعدم خلو الساحة حولهم قط من المتصدرين المجازفين الأذكياء !!

من تراب الطريق (٥٦٢)

مدارج الآدمي بين النضج والعاطفة والعقل والخيال (*) (٢)

لا شك أنه فيما يتعلق بالحيل أو المكائد الشائعة فى المدينة أن نسبة الانخداع بها لدى أهلها ، أقل بكثير من نسبتها لدى السائحين أو لدى الوافدين من أهل القرى . وهذا لا يزيد فى نضج أهل المدينة ولا ينقص من مستوى نضج السائح أو نضج الوافد من قريته .. ذلك لأن هذا جانب فقط من الخبرة المحلية .. وقد يكون أهل القرية أكثر نضجا من سكان المدينة .. لأنهم أكثر اتصالاً بمحيطهم وأكثر التصاقاً وإحاطة بما يدور فيه ، وأقل اقتناعاً واحتفالاً بالأفكار والنظريات والشعارات من سكان المدينة التى تسود فيها الصلات الضيقة والعزلة الفردية والمعرفة بما يجرى فيها عن طريق وسائل الإعلام التى تنقل فقط ما يحدث فى المدينة من أحداث وأعمال وعلاقات قلما يشعر بها غير أطرافها ، إلاَّ ما ينشر عنه فى الصحف أو بطريق الصدفة من ناقل لا يهتم أحدٌ بالتحقق من صدقه .. ومعارف ساكن المدينة بها أو بغيرها فى وطنه أو فى العالم معارف نظرية فى الأعم الأغلب تتصل بالأفكار والحوادث التى يتخيلها الآدمى يوم رؤية الصورة أو قراءة الخبر أو سماعه .. وهى غالباً عرضة للنسيان لا تترك بصماتها طويلاً على الذاكرة ، لا بسبب تواليها وكثرتها ، ولكن بسبب عدم اتصال حواس الآدمى المعين مباشرة بها وبأطرافها ، وفى البلاد المتقدمة يحاول الناس تعويض هذا القصور بكثرة

(*) المال ١٤/ ٢/ ٢٠١٢

النوادى والجمعيات والندوات والمؤتمرات والرحلات الجماعية والسياحة طويلة الأجل فضلاً عن توسيع نطاق المراسلات المتنوعة بينهم وبين الأفراد فى البلاد الأخرى على غير سابق معرفة ودون أى يرى أحدهم الآخر قط .

ومشكلة النضج ترجع فيما يبدو إلى خطأ قديم فى فهم حقيقة معناه الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بواقع الحياة الاجتماعية والفردية فى بيئة معينة .. بدأ هذا الخط أولاً من مغالاة القدامى فى قيمة القراءة والكتابة حين لم يكن يقدر عليها إلا القليلون واعتبارها أمارة بصيرة يَفْضُل بها من يعرفها الأميّ الذى لا يعرفها .. ثم انتقل الأمر إلى تفاضل أنواع المعلومات الجديرة بالقراءة والكتابة ، ثم إلى تخصص يأخذ المتخصص لسنوات لا يشتغل فيها بغير النوع الجاد فى نظره ونظر أهله الذى وقف عليه مستقبل أيامه ، ثم أخيرًا ظهر بشكل ملحوظ تخصيص الحياة العاقلة كلها لتحصيل المعارف وتصنيفها ، وهذا قمة النضج المدعى به . بهذا أو بمثله انتقل الناس من متاهة بدائية إلى غيرها مما هو أكثر منها تقيداً وتكلفاً الأمر الذى أبعد التعليم والتعلم كل يوم عن أن يكون مصدرًا فعليا لاكتمال فطنة الآدمى للأسباب والدوافع المشاهدة والمؤثرة فعلا وواقعا فيه وفى بيئته ومحيطه العام .. وهذا كان يمكن أن يتحقق لكل إنسان يستطيع أن يتأمل فى التفات وانتباه وهدوء وروية لما يجرى فى نفسه وفى بيئته ومحيطه .. سواء قرأ وكتب أو لم يقرأ ولم يكتب ، بل لعل هذا الإنسان الذى لا يقرأ يكون أقوى ملاحظة وأكثر فهما وأصح توقعا لأنه أكثر اختلاطًا وتعاملاً مع جمهور الناس فى حياته العادية اليومية من العالم أو الباحث أو المفكر أو الفيلسوف أو رجل القضاء أو الجيش المنعزل فى حلقته أو مدرسته أو بعمله أو مكتبه أو محكمته أو فرقته ونشاطه الرتيب .

هكذا شاع من قديم قلة الاهتمام بالنضج فى المجتمعات البشرية إذا قيس بالدراية والذكاء ، وكان من نتائج هذا الاهتمام المتزايد فى كل مجتمع نام أو متطور نشر التعليم والتعلم فى المدارس والجامعات والمعاهد التى تعزل التلاميذ والطلاب معظم أوقات نهارهم عن مخالطة الجمهور والامتزاج بالحياة الفعلية التى يعيشها ، وترتب على ذلك أن باتت معالم النضج غير واضحة فى معظم المتصدرين للحكم أو الإدارة أو قيادة الجماهير أو تدبير أمور الاقتصاد أو توجيه الصناعة والتجارة والصحة والإسكان والمواصلات والأمن والعدل . لأن أغلب أولئك يَخْتارون ويُختارون من خريجى الجامعات والمعاهد العالية .. لا تمييز فى ذلك بين نشأة الموسر ونشأة المعسر .. لأن هذا يتلهف إلى نسيان حياته الأولى ، فليس لها عنده أيادٍ أو تجارب أو خبرات أو أخلاق ، ولا ينشد من حياته الحالية إلاّ الاستمرار فى الصعود والثراء والمكانة وتكوين أسرة مرموقة .. وهذا وذاك لا يحرص فى تربية أولاده على ضمان نضجهم ، وإنما يحرص على رقى تعليمهم بتعليم طبقته هو أو الطبقة التى صعد هو إليها .

وربما تسأل ما هو المأمول من حاضر ومستقبل الجماعات الحالية متطورة أو نامية ؟ نقول إنه ينبغى عليها أن تجرى من الآن لاهثة لتجد أسرع ما تستطيع مددًا غير قليل من الأفراد الناضجين فعلا لا افتراضا أو تسامعا .. تسلم إليهم أمورها الهامة عاجلها وآجالها لا ليعودوا بها إلى ماضيها المجيد ، فهذا جمود وسخف ، وإنما ليقودوها أساسًا إلى الإيمان بقيمة النضج وضرورته فى كل أوان للفرد والجماعة والأمة والدولة ولبناء النوع الإنسانى كله ، وتلقينها الحرص على النضج قبل الطمع فى الذكاء والمهارات واستمرار الحرص عليه

كخيط الحياة وعلى تكاثر وتوالد الناضجين المؤمنين به .. لأن هؤلاء وحدهم هم القادرون على النظر بجد وحكمة إلى عواقب الأمور ، وعلى الحساب الأمين الخالى من الوهم والخداع للخسائر والمكاسب الفعلية والمحتملة ، والذين يستحيل أن يدخلوا بجماعتهم وبأنفسهم فى المضاربات والمغامرات وتحديات الخطر جريًا وراء الأطماع والخيالات والأمانى والأمجاد الزائفة غير الباقية .

من تراب (٥٦٣) مدارج الآدمي بين النضج والعاطفة والعقل والخيال (*) الطريق (٣)

قد تعتمد حسابات الأرباح والخسائر الناجمة عن تراجع أو خفوت النضج على أن العيش فى ظل الأنظمة السياسية والإدارية والاقتصادية والتعليمية الراهنة ينضج بسلبياته ، وأن هذه الأنظمة فى خطئها وصوابها تجيى حياتها وتطورها إلى الأفضل والأحسن ، وهو ما لا نوافق عليه ، لأن ما تسميه تطورًا أو خطًى إلى التطور فيه تجاهل عميق لأساس من أسس بقاء الحياة على الأرض ، وهو التفطن للواقع الحاصل فعلاً ومسايرته بما لا يفلت من نظرنا وحسابنا الأمين دلائله واتجاهاته الواضحة لكل عين لا يغمضها الاعتياد أو عدم المبالاة .. وهو هو ما نعنيه هنا بكلمة النضج التى لا تعنى أكثر من الالتفات إلى اتجاهات هذا الواقع فى تطوره عبر الزمان والمكان وعدم الانصراف عنه إلى الأوهام والأحلام والاندفاعات والمجازفات التى تصوغ ذلك وتزينه بالبريق أو الرنين الحالى للفروض والنظريات .. فالآدمى ليس سيد واقعه ، ولم يكن كذلك قط ، ويستحيل أن يكون كذلك .. وإنما هو تابع ذو عقل مطلوب منه أن ينضج عقله ليحسن أن يتعرف على واقعه ما أمكنه ذلك بالتفطن والروية والتحول المحسوب على أساسهما، وهذا هو جوهر النضج ..لأن إغفال الاهتمام بالنضج قبل الاهتمام بالذكاء والمهارات فى اختيار الحكام والمديرين والموجهين والمراقبين مع تعقد أنظمة

(*) المال ١٥/ ٢/ ٢٠١٢

الحكم التى يسيطر عليها هؤلاء ، وتشابك المصالح الخاضعة لهذه الأنظمة ، نتيجة تدخل وتغلغل الدولة وتوابعها فى معظم مقومات حياة الأفراد الذين تضاعف عددهم مرات عما كان فى كل مجتمع .. كل ذلك قد غيّر تغييرًا أساسيا التركيب العام للجماعة ، فشمل جمهورها الذى بات مسموع الصوت فى التغيير والتعديل ، وأدى إلى قدر من السيطرة السطحية والخفة فيه تطاول وغرور وعمق وقلق وسرعة ملل ترحب باستمرار بتغيير الوجوه والأحوال ، وترحب بجديد لا تلبث أن تنبذه وتستعجل استبعاده ، وهى لا يعوزها المغامرون والماكرون الذين يهيئون ما يرغب فيه الجمهور ليصلوا به إلى أغراضهم . وفى ذلك الضباب الكثيف الملازم الذى يتزايد مع الأيام والليالى تتشوه صور كل الأمور وصور كل الناس ومعالم المجتمع والحياة العامة والخاصة التى لم يعد يوجد فيها ثقة أو ثبات أو أمان أو إيمان بشىء ذى قيمة ليس فيها ريبة أو شك !

ولا يمكن أن يوجد نضج حقيقى إلاّ إذا كان متعدد جوانب التجربة والخبرة والرشد .. وهذا لا يتأتى بالقراءة وإطالة النظر والتأمل فى الانكباب فى مكتبة أو مختبر على أوراق ومواد وأدوات ، ولكن يتأتى باتساع وتوسيع فرص الاتصال الفعلى المنفتح على البنية الكبيرة التى يكبر الآدمى فى ظلها وبين أهلها .. يتعلم منها عملاً واحتكاكاً بوعى وبغير وعى ما تحبه وما تكرهه من كل ما يمضى أو يحدث أو يعرض أو يقترح أو يفكر فيه ، ويعرف متى ترضى وبأى شىء ترضى ، وما ترفض ولأى شىء ترفض ..ويعرف ما يعتبر لديها قويا سليما ، وما يعتبر لديها معوجاً معلولاً ، وما هو لائق عندها وغير لائق .. ثم يعرف ما الذى يمكن أن تفعله إذا رضيت أو سخطت ، وما الذى تعمله وتصبر عليه ، وما الذى يمكن أن تفعله إذا سخطت أو يئست !!!

فالخلل الملحوظ الآن فى جماعاتنا ناجم منذ أمد من انعزال النشء منذ الطفولة عن البيئة الكبيرة حرصاً على تعليمه واستمرار هذا الانعزال سنوات يكون فيها النشء غير مزود إلاّ بما رآه بغير عناية والتفات أو بسخط مكتوم أو معلن فى أسرته ، وبما زودته السنون التى قضاها فى المدرسة أو المدن أو المعهد أو الجامعة من بواقى ما تلقاه من المعلمين والأساتذة ، وما تلقفه من زملائه ومعظمه لا يسر وهو حتما يضر .. ولا نقصد من هذا أن نغمط فضل المدارس والمعاهد والجامعات وتقبيح تعليم الصغار منذ الطفولة ، وإنما نقصد فقط إبراز أن الاهتمام الواسع بالتعليم ونشره بين جميع الطبقات والأعمار لإتاحة فرص العمل الأنسب مع الاستنارة للجميع .. رافقها تضييق فرص النضج الفعلى كما يحدث فى كل مسعى إنسانى نافع حين يتهافت عليه العموم أو يجبرون على ذلك التهافت . وربما أمكن فى وقت قريب الاستفادة من الإمكانات الهائلة المتقدمة فى نقل ونشر المعلومات على أى بعد وأى مكان ، وفى الاستغناء عن حشد الألوف من الصغار والمراهقين والشباب على ذمة التعليم بمستوياته المختلفة أغلب ساعات النهار وأحيانا أغلب ساعات الليل أيضا ، وتمكينهم من التنقل والتحول كالنحل يلتقطونه ويجمعون المعلومات والمعارف العلمية والفنية والخبرات الإنسانية الحية الفعلية بحواسهم مباشرة ، أو ممن كابدها بحواسه ، لا من كتاب ولا ممن تعلمها فقط من كتب أو من معمل أو مختبر . لأن اعتياد المراهق والشاب على الاعتماد على حواسه كلها فى التعرف على واقع عالم جماعته ضمانة أكيدة للنضج العقلى والنفسى فيه وفي جماعته .

والمدة التى يستغرقها تمام النضج ، تتفاوت بتفاوت استعدادات الأشخاص واختلاف ظروف كل منهم وبيئاتهم والقيم والمعايير العامة

السائدة فى مجتمعهم .. وفيهم من يكون نضجه مبكرا ، ومنهم من يتأخر نضجه ، ومعظمهم إذا نضج فإنه ينضج فى الأربعينيات .

وكثرة النضج والناضجين فى جماعة تتبعها حتما كثرة الاعتدال والمعتدلين .. لأن الاعتدال مبناه الحرص على عدم التفريط فى الأصول والموازين الراهنة فى التعامل والتعايش مع الأمل المعقول فى تحسينها بالسعى الجاد وهو يختلف عن المبالغة فى الاحتياط التى يتسم بها المتشائمون والموسوسون .

هذا مع ملاحظة أن المبتكر أو المخترع برغم ذكائه وموهبته وشهرته ليس هو الذى يدفع بابتكاره أو اختراعه ويعطيه الصورة النافعة عند الناس .. لأن هذا يحتاج إلى نضج واعتدال وخبرة مما لا يوجد إلا عند الناضجين من أرباب الأعمال والأموال الذين يرصدون فى هذا السبيل أموالهم وجهودهم وتجاربهم مع أوقاتهم وانشغالهم واهتمامهم به .

وينبغى ألا ننسى ما يعانيه العالم فى السنوات الأخيرة بصفة خاصة من شيوع العنف والإرهاب وازدراء الأرواح البريئة . والفتن المسلحة ، والثورات التى لا تنطفئ .. وأن وراء ذلك كله بطلان العناصر غير الناضجة فى الجماعات وعجز الناضجين عن السيطرة عليها .